حجاجية التشبيه عند التنفري الأزدي – صورة القوة نموذجًا

إعداد

أحمد حسن محمد الخُرَشي

المدرس المساعد بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة أسوان

رقم التليفون: ٠١١٥١٥٩٥١٥٠

الإيميل: ahmadhasanm092@gmail.com

المستخلص:

إذا كانت البلاغة – في أساسها – تهدف إلى استمالة المتلقي، والتأثير فيه بواسطة الصور البيانية وغيرها من الأساليب البلاغية؛ فإنها بذلك تعد أحد أهم الآليات الحجاجية، ويكون الحجاج البلاغي من أهم ما يتكئ عليه الشاعر في تقديم حجته، وبذلك تجمع الآليات البلاغية بين الإمتاع والإقناع. ويعد التشبيه مِن الأدوات البلاغية ذط٤ات التأثير الإقناعي؛ لذلك يسعى الشاعر إلى بناء تشبيهاته بطريقة تعتمد على إثارة المتلقي للبلوغ به درجة الإقناع، وقد أفاض العلماء والباحثون – قديمًا وحديثًا – في بيان حد التشبيه، وأقسامه وأركانه.

وقد اعتمد الشاعر الجاهلي على التشبيه اعتمادًا كبيرًا؛ فقد كان وسيلته الأولى في استمالة المتلقي نحو فكرته المطروحة، وهذه القضية أثارت انتباه القدماء والمحدثين. كما أشار المحدثون في أثناء تناولهم مبحث التشبيه في دراساتهم إلى أهميته من الناحية البلاغية، وقوته من حيث التأثير في المتلقي، ومن ثم أثره في الإقناع؛ لكونه آلية يرتكز عليها الشاعر في بناء شعره، وقد كان أكثر حديثهم عن الصورة الفنية بوجه عام، وقيمتها الحجاجية.

الكلمات المفتاحية:

التشبيه، الحجاج، الصورة الشعرية، الشنفرى الأزدي.

Abstract:

One of the main aims of rhetoric is to persuade and affect the recipient's ideas through various figures of speech and rhetorical devices; thus, rhetoric is considered one of the most significant argumentative mechanisms. Accordingly, rhetorical argumentation is one of the most important tools on which the poet relies in presenting his argument, and thus the rhetorical mechanisms can be combined with enjoyment and persuasion.

Simile is one of the rhetorical devices which have a persuasive effect on the reader. Therefore, the poet seeks to link his similes with the excitement degree of the recipient. In modern and past decades, many scientists and scholars attempt to detail the limits and types of simile. The pre-Islamic poet relied heavily on simile; it was his first means of persuading the recipient of his proposed idea, and this issue aroused the attention of the ancients and modernists. In their studies, the modernists have referred to the rhetorical importance of smile, as well as its strength and impact on the recipient. Furthermore, simile represents a literary mechanism which helps the poet to form the poetic structure of his poems. Most of the modernists seek to emphasize the importance of using imagery and argumentation in their poems.

Keywords: simile, argumentation, figures of speech, Al-Shanfara.

مقدمة:

إنّ حجاج الشعر يختلف من قصيدة إلى أخرى، ومن شاعر إلى آخر، ومن غرض إلى غرض، كما تختلف حجاجية الشعر بحسب التجربة الذاتية للشاعر، فكلما كانت التجربة صادقة، كانت القصيدة أكثر حجاجية.

ومن ناحية أخرى يعتمد تبليغ الحجة والإقناع بها – في الأساس – على مدى قدرة الشاعر على استخدام الآليات الحجاجية المناسبة؛ فكما أنّ لكل مقام مقال، فلكل حجاج جمهور يجب على الشاعر مراعاته في تقديم حججه إليه.

ولكن – في الوقت نفسه – ليس معنى أنّ الشعر يدخل في دائرة الحجاج أنّ كل نص شعري يصل – بالضرورة – إلى درجة الحجاج المطلوبة؛ بل قد ينجح الشاعر في دحض حجج المخالفين، وإثبات فكرته، أو قد يخفق في ذلك تمامًا.

وإذا كانت البلاغة – في أساسها – تهدف إلى استمالة المتلقي، والتأثير فيه بواسطة الصور البيانية وغيرها من الأساليب البلاغية؛ فإنها بذلك تعد أحد أهم الآليات الحجاجية، ويكون الحجاج البلاغي من أهم ما يتكئ عليه الشاعر في تقديم حجته، وبذلك تجمع الآليات البلاغية بين الإمتاع والإقناع .

والشاعر يلجأ إلى الوسائل البلاغية بغية الوصول بالمتلقي إلى حالة من الإقناع والتسليم للفكرة المطروحة، وذلك عن طريق عرض الحجج واحدة تلو الأخرى، ولا يكون الحكم على هذه الحجج بالصحة أو الخطأ؛ بل بالقوة أو الضعف؛ فالشاعر البارع هو من يستطيع عرض حجته فيقنع المتلقي، معتمدًا على الجانب البلاغي اعتمادًا أوليًا، ثم تأتي الآليات اللغوية، وكذلك التداولية.

<u>الحجاج والبلاغة:</u>

أما عن حدود العلاقة بين الحجاج والبلاغة فإن الحجاج " ليس فنًا يوازي البلاغة؛ بل مجموعة من الأساليب والأدوات يتم اقتراضها من البلاغة، ومن غيرها...؛ ولذلك فمن اليسير الحديث عن اندماج الحجاج مع البلاغة في كثير من

الأساليب؛ ولمّا كان مجال الحجاج هو المحتمل وغير المؤكد والمتوقع، فقد كان من مصلحة الخطاب الحجاجي أن يُقوِّي طرحه بالاعتماد على الأساليب البلاغية والبيانية التي تُظهِر المعنى بطريقة أجلى وأوقع في النفس " (١) .

وهذا يعني أنّ الحجاج يقوم – في أساسه – على البلاغة، وليس بديلًا عنها؛ فالآليات البلاغية تقوي حجة الشاعر، وتدفع بها نحو الإقناع .

كما أنّ " أهمية الوسائل البلاغية تكمن فيما تُوفّره للقول من جمالية قادرة على تحريك وجدان المتلقي ... فإذا انضافت تلك الجمالية إلى حجج متنوعة وعلاقات حجاجية تَربِط بدقة أجزاء الكلام وتصل بين أقسامه، أمكَن للمتكلم تحقيق غايته من الخطاب " (٢) .

ولكن ذلك كله يعتمد بصورة أساسية على قوة الشاعر، وبراعته في استخدام وسائله البلاغية بطريقة يستميل بها المتلقي، ويدفع به دفعًا نحو الإقناع.

ويعد التشبيه من الأدوات البلاغية ذات التأثير الإقناعي؛ لذلك يسعى الشاعر إلى بناء تشبيهاته بطريقة تعتمد على إثارة المتلقي للبلوغ به درجة الإقناع، وقد أفاض العلماء والباحثون – قديمًا وحديثًا – في بيان حد التشبيه، وأقسامه وأركانه.

" فهو لم يكن فنًا طارئًا، ولا علمًا مدخولًا على البلاغة العربية؛ بل هو من الأسس البيانية التي وَطَّدت دعائم الفن البلاغي بعامة ... هذا بالإضافة إلى تأثيره النفسي والعقلي؛ فإنه ينتقل بالإنسان من أفق إلى أفق، ويتخطى به من مناخ إلى مناخ " (٣) .

---

(١) محاولات في تحليل الخطاب: صابر الحباشة، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٩م، ط١، ص٥٠.

(٢) الحجاج في الشعر العربي – بنيته وأساليبه: سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١١م، ط٢، ص١٢٠.

(٣) أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم، محمد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي، بيروت – لبنان، ١٩٩٩م، ط١، ص٧٩ .

يقول (السيوطي): " فبحسن الألفاظ واختلافها على المعنى الواحد تُرَصَّع المعاني في القلوب، وتلتصق بالصدور، ويزيد حسنُه وحلاوته وطلاوته بضرب الأمثلة به، والتشبيهات المجازية، وهذا ما يستعمله الشعراء والخطباء والمترسلون " (١).

وإنّ فكرة التصاق المعاني بالصدر، وترصُّعِها في القلوب، يمكن تسميتها – في إطار الدراسة – ببلوغ الحجة، وقد أشار (السيوطي) إلى أهم الآليات التي تُعِين على ذلك؛ فكان التشبيه أحد أهم هذه الآليات.

" فالتشبيه يعد من الأساليب البيانية المميزة؛ إذ يزداد به المعنى رفعة وشأنًا، ويبرزه إيضاحًا وبيانًا، ويُكسبه تأكيدًا وبلاغة؛ إنه وعاء كبير يستوعب الأفكار والمشاعر؛ فيجد فيه الشاعر أداة طيِّعة في كل غرض من أغراض الكلام التي يريد التعبير عنها " (٢) .

يقول (جابر عصفور): " إن أصل المتعة التي تُقدّمها الصورة يرتدّ إلى نوع من التعرف على أشياء غير معروفة؛ وكأن النادر والغريب من الصورة الشعرية يثير فضول النفس، ويُغَذِّي توقها إلى التعرف على ما تجهله؛ فتُقبِل عليه؛ لعلها تجد فيه ما يشبع فضولها " (٣) .

وقد أشار (ابن سنان الخفاجي) إلى حسن التشبيه، وأثره البلاغي فقال: " والأصل في حسن التشبيه أن يمثِّل الغائب الخفي الذي لا يعتاد بالظاهر المحسوس

---

(١) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ورفاقه، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٣، ١/٣٧،٣٨ .

(٢) بلاغة التشبيه في النقد العربي القديم والحديث: عبد الرحمن حجازي ، بحث منشور بمجلة علامات في النقد، مج١٧، الجزء٦٧، جدة، ٢٠٠٨م، ص١١٥.

(٣) الصورة الفنية بين التراث النقدي والبلاغي عند العرب: جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢م، ط٣، ص٣٢٥.

المعتاد؛ فيكون حسنُ هذا لأجل إيضاح المعنى وبيان المراد، أو يمثِّل الشيء بما هو أعظم وأحسن وأبلغ منه؛ فيكون حسنُ ذلك لأجل الغلوّ والمبالغة " (١) .

وهذا دليل على حجاجية التشبيه؛ بل إشارة إلى تفاوت درجات التشبيه من حيث قوة التأثير في المتلقي، والوصول به إلى درجة من الإقناع.

حجاجية التشبيه:

اعتمد الشاعر الجاهلي على التشبيه اعتمادًا كبيرًا؛ فقد كان وسيلته الأولى في استمالة المتلقي نحو فكرته المطروحة، وهذه القضية أثارت انتباه القدماء والمحدثين.

حيث يقول (المبرد): " والتشبيه جار فى كثير من كلام العرب، حتى لو قال قـــائل: هو أكثر كلامهم، لم يبعد " (٢).

ويقول (حنا الفاخوري): " والتشبيه عند الجاهلي من مقومات الكلام الأساسية؛ فهو يعتمده اعتمادًا، ويرتكز عليه ارتكازًا؛ لأنه لسان النزعة المادية الحسية التي هي صفة البداءة، وهذا التشبيه يتحول أحيانًا كثيرة إلى الاستعارة " (٣).

كما أشار (أبو الهلال العسكري) إلى سبب اتجاه القدماء إلى التشبيه؛ فقال: " والتشبيه يزيد المعنى وضوحًا، ويُكسِبه تأكيدًا، ولهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحد منهم عنه، وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كل جيل ما يستدلُّ به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكل لسان " (٤) .

---

(١) سر الفصاحة: ابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م، ط١، ص٢٤٦.

(٢) الكامل في اللغة والأدب: أبو العباس المبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧م، ط٣، ٣/٧٠.

(٣) الجامع في تاريخ الأدب العربي – الأدب القديم: حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت – لبنان، ١٩٨٦م، ط١، ص١٥٨.

(٤) كتاب الصناعتين: أبو الهلال العسكري، تحقيق: محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ، ١٩٥٢م، ط١، ص٢٤٣.

وقد أشار المحدثون في أثناء تناولهم مبحث التشبيه في دراساتهم إلى أهميته من الناحية البلاغية، وقوته من حيث التأثير في المتلقي، ومن ثم أثره في الإقناع؛ لكونه آلية يرتكز عليها الشاعر في بناء شعره، وقد كان أكثر حديثهم عن الصورة الفنية بوجه عام، وقيمتها الحجاجية.

فمن المحدثين من أشار إلى أنّ " الهدف من الأساليب البيانية أو الصورة البلاغية ليس مجرد إقامة علاقة بين مشبه ومشبه به، أو افتراض أقيسة منطقية بين حقيقة ومجاز؛ بل إن الصورة البلاغية وسيلة الشاعر ليعبِّر بها عن حالات لا يمكن له أن يتفهمها أو يجسدها بدونه؛ فهي الوحيدة القادرة على تقديم المعنى الذي يرومه أو الحالة التي يعيشها " (١) .

حيث " يأتي الشاعر بالتشبيه في خطابه لتقريب الصورة التي يراها مناسبة للمقام، إلى المتلقي؛ ليتسنى له رؤيتها رأي العين، وكلما كانت صور التشبيه بديعة قريبة إلى تصوُّر المخاطَب ساعد ذلك على إقناعه " (٢) .

وقد أشار (جابر عصفور) إلى أهمية الصورة في الإقناع، ودلالتها في الحجاج في القرآن الكريم؛ فقال: " وعندما تُستخدم الصورة لتحقيق النفع المباشر؛ فإنها تهدف إلى إقناع المتلقي بفكرة من الأفكار، أو معنى من المعاني ... ومن المهم أن نلاحظ أن فهم الصورة الشعرية، بكونها وسيلة للإقناع، كان يجد ما يدعمه في الدراسة البلاغية للقرآن الكريم؛ ذلك أنّ دراسة أساليب القرآن في التأثير والاستمالة، كانت تؤدي بدورها إلى فهم الصورة القرآنية على أنها طريقة في الإقناع، تتوسل بنوع من

---

(١) التداوليات – علم استعمال اللغة: حافظ إسماعيلي علوي، دار الكتاب الحديث، الأردن، ٢٠١٤م، ط٢، ص٥٧٣ .

(٢) الحجاج في شعر المتنبي – دراسة في الفاعلية الحجاجية: عباس حسن الطيار، بحث منشور بمجلة العلوم الإنسانية، مج٣٦، العدد٥، جامعة بابل، ٢٠١٨م، ص٢٦٠.

الإبانة والتوضيح، وتعتمد على لون من الحجاج والجدل، وتحرص على إثارة الانفعالات في النفوس " [١] .

هذه النظرة إلى الصورة الفنية – ومنها التشبيه – تؤكد اتفاق النقاد والبلاغيين على حجاجية التشبيه، وأثره في الإقناع، وهذا ما يعرض له الباحث من خلال دراسة بنية التشبيه في شعر الصعاليك، ودلالتها الحجاجية، من خلال بعض الصور البارزة في شعرهم.

صورة القوة عند الشنفرى:

اشتهر (الشنفرى) باسمه بحيث لا يحتاج معه إلى تعريف، كما أنه لم يشاركه فيه أحد؛ لأنه لم يشتهر به غيره، وهو يدلّ على أصوله من ناحية أمه؛ فقد كانت حبشية، ولعل ذلك ما بنى عليه حياته متمثلًا في المعاناة النفسية والاجتماعية.

وقد كان للصعلكة أثرها في الشنفرى الأزدي؛ فقد دفعته إلى تعويض نفسه عمّا لاقاه؛ فكانت صورة القوة ملجأ الشاعر في تبرير فعله، وإظهار غلبته وعدم حاجته لقومه؛ فلذلك راح يضفي على نفسه صورة توحي بالزعامة، وتحمل من دلالات القوة ما يجعلها صورة مثالية؛ بل صورة أسطورية في بعض الأحيان، وكان التشبيه إحدى الوسائل البلاغية في حمل دلالات القوة للمتلقي؛ محاولةً لإقناعه بها.

فيقول في تصوير مظاهر قوَّته:

هُــمُ عَرَفُــوني نَاشِــئًا ذا مَخيلَــةٍ أُمَشِّي خِلَالَ الدَّارِ كالأسَدِ الوَرْدِ [٢]

ففي البيت إشارة إلى الأنفة والعزة، التي شهد بها عدو الشاعر اللدود (بنو سلامان)، وهذا ملمح مهم في البيت؛ فكأنّ الشاعر يريد أن يقول: إن الحقَّ ما شهدت

---

(١) الصورة الفنية بين التراث النقدي والبلاغي عند العرب: جابر عصفور، ص٣٣٢ .

(٢) ديوان الشنفرى، تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت،١٩٩٦م، ط٢، ص٤٢.

به الأعداء، وقد بنى الشاعر حجته على قوته في مشيته من خلال التشبيه المرسل؛ وهو لم يخرج – في تشبيهه – عن عالم الحيوان ، فيستشهد على شجاعته بالأسد رمزًا للشجاعة .

" ففائدة التشبيه من الكلام أنّك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به، أو بمعناه، وذلك أوكد في طرفي: الترغيب فيه، أو التنفير عنه " (١) .

والشنفرى في البيت يبني صورته التشبيهية للهدف الأول، ألا وهو الترغيب؛ فهو يحتج على شجاعته وإقدامه، مشبهًا نفسه بما تعارف عليه الجاهليون في أنه رمز القوة عندهم.

ويقول:

أَنـــا السِّـــمع الأَزَلُّ فـــلا أُبـــالي ولو صَـــعُبَت شَـــناخيبُ العِقـــابِ(٢)

تناول كثير من شعراء الجاهلية الذئب في أشعارهم، ولكن اختلف توظيف صورة الذئب عندهم بحسب غاية كل واحد منهم.

والشنفرى في البيت يريد أن يقدم حجته على قوته؛ فيشبِّه نفسه بولد الذئب في أهم صفاته وهي السرعة، ويعتمد في هذا المعنى على بنية التشبيه البليغ؛ وكأنه لا يريد أن يفصل بينه وبين ما يريد تشبيه نفسه به؛ حتى ليُخيَّل للمتلقي أنهما واحد.

حيث ترجع قوة التشبيه في حذف بعض عناصره، وهذا يتناسب مع الغاية الحجاجية الذي يريد أن يؤكدها الشاعر؛ فالتشبيه البليغ أفاد الخروج بالتشبيه من

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ٣/ ١٢٣/٢ [د.ت].

(٢) ديوان الشنفرى، ص٣٠.

التقرير والمباشرة إلى المبالغة والتأكيد، كما أنّ حذف الأداة يعمل على المطابقة التامة بين المشبه والمشبه به، وهذا ما يجعله في مرتبة عليا من الحجاج، **ويقول:**

كأنّي إذا لم أُمْــسِ فــي دَارِ خالــدٍ بِتَيْمَاءَ لا أُهْدَى سَبِيلاً وَلاَ أَهدِي[١]

يصور الشاعر نفسه إذا لم يأخذ بالثأر لصهره، بعد أن عاهده على قتل مائة من (بني سلامان) إن هم قتلوه، وكأنه رجل هائم على وجهه في الصحراء لا يهتدي إلى أي سبيل. والبيت اعتمد على التشبيه المرسل وأداته (كأنّ)، والتي توحي بالتقارب بين المشبه والمشبه به، بدون فاصل بينهما، وهذا يتضح في قوله تعالي: ﴿ **قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ** ﴾[٢] .

ويقول في تصوير سرعة صاحبه (تأبط شرًا):

وَتَأتي العَدِيَّ بارزًا نِصــفُ ســاقِها تَجولُ كَعَيْــرِ العانَــةِ المُتَلَفِّــتِ[٣]

يصف الشنفرى صاحبه في قوته وهو يدفع الأذى عنه وعن أصحابه من الصعاليك، معتمدًا على التشبيه؛ وقد أضفى التشبيه على المعنى المراد طاقة حجاجية تحمل المتلقي على القبول والتصديق؛ ذلك لما للتشبيه من أثر في المتلقي؛ يقول (الخطيب القزويني) " اعلم أنّه مما اتفق العقلاء على شرف قدره، وفخامة أمره في فن البلاغة، وأنّ تعقيب المعاني به ... يُضَاعف قُواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحًا كانت أو ذمًا، أو افتخرًا، أو غير ذلك " [٤] .

---

(١) ديوان الشنفرى، ص٤٢.

(٢) سورة: النمل، الآية٤٢ .

(٣) ديوان الشنفرى، ص٣٦.

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، ١٩٥٨م، ط٥، ٣٢٨/٢.

فالشاعر في البيت يؤكد استعداده وعزم صاحبه على القتال؛ فيشَبَّهه بالحمار البري في اندفاعه للدفاع عن بقية الحمير والأتان؛ غيرة منه عليها؛ ولذلك يكون تأبط شرًا – في نظر الشنفرى – حامي حمى الصعاليك.

وقد تكررت ظاهرة تشبيه الشاعر لنفسه ولرفاقه بالحيوان، أما تشبيه الرجل الشجاع بالحمار – فـــــــــي البيت – فجاءت موافقة لما جاء في اللامية؛ فالشنفرى هو الذي وجد في عالم الحيوان عِوضًا وبديلًا عن أهله، ومن ثم راح يُفَنِّد الأسباب التي دفعته لذلك، ويسرد المبررات.

ويقول :

وَإِنّكِ لَو تَــدرينَ أَن رُبَّ مَشــرَبٍ مَخوفٍ كَداءِ البَطنِ أَو هُوَ أَخَوفُ[١]

في هذا البيت يشبَّه الشاعر رهبة الماء المُخَوِّف بداء البطن؛ بل أخوف من ذلك، ولكنه في الوقت نفسه لا يخاف ورود الماء؛ فهو الذي طالما أثبت شجاعته، وهذا التشبيه يحتجّ به على ثقل الهموم، فكأنها حُمّى الربع التي تأتي الإنسان ثم تعود له بعد أربعة أيام، وبذلك تجتمع على الشاعر آلامه النفسية وكذلك الجسدية.

وقد اعتمد الشاعر في التشبيه المرسل على الأداة (كأن)، وهي ظاهرة في الشعر الجاهلي: " ولعل ذلك يرجع إلى جمالها المتمثل في رصانة إيقاعها، بالإضافة إلى ذلك، أنها مركبة من عنصرين اثنين: أداة التشبيه (الكاف)، وأداة التوكيد (أنَّ)، فكأنها ليست أداة للتشبيه فحسب، ولا أداة للتوكيد فحسب؛ بل هي للاثنين معًا " [٢] .

---

(١) ديوان الشنفرى، ص٥٤.

(٢) السبْع المعلّقات – مقاربة سيمائيّة أنتروبولوجيّة لنصوصها: عبد الملك مرتاض، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨، ص٣٣٧ [د.ط].

ويقول في الإيحاء بقوته في رجولته:

إِذا مـــا جِئـــتِ مـــا أَنهـــاكِ عَنـــهُ وَلَـــم أُنكِـــر عَلَيـــكِ فَطَلّقينـــي[١]

فَأَنـــتِ البَعـــلُ يَومَئِـــذٍ فَقـــومي بِسَـــوطِكِ لا أَبـــا لَـــكِ فَاضـــرِبيني

يختتم الشاعر مقطوعته التي يحاور فيها مع المرأة بهذا التشبيه؛ فالبيت فيه حجة سخرية عن طريق التشبيه البليغ، ويرى الباحث أنّ توظيف الشاعر للتشبيه البليغ فيه ادّعاء بأن المشبه هو عين المشبَّه به، وكذلك فيه إيجاز يدفع بالمتلقي نحو الإقناع.

فهو يأمر زوجته أن تطلقه إذا جاءت بما ينهاها عنه ولم ينكر عليها؛ وكأنها هي الرجل، وبالفعل يبدأ البيت الأخير بقوله: فأنتِ البعل، فهو حجاج سخرية، يريد العكس أو يهددها به تلميحًا.

يقول:

فَأَيّمـــتُ نِســـوانًا وَأَيتَمـــتُ إِلَـــدَةً وَعُدتُ كَما أَبدَأتُ وَاللَيـــلُ أَلِيَـــلُ[٢]

فالتشبيه المرسل يحتجّ به على استمرار غاراته في دورة زمنية لا تتوقف.

وقد بدأ الشاعر البيت بالفاء التي تفيد السرعة، أما الجمع في **(نسوانًا)** فدلالة على كثرة مَن قَتَل، وفيه دلالة أخرى مهمة، وهو أنه قتَل الرجال دون النساء، وهذا يوحي بمعنى إنساني عظيم. وقوله: **(اللَيلُ أَلِيَلُ)** دلالة على شدة الظلام، وحجة على سرعته؛ فقد عاد قبل بزوغ الفجر.

فَإِن يَكُ مِن جِـــنٍّ لَـــأَبرَحُ طارِقًـــا وَإِن يَكُ إِنسًا ما كَها الأُنسُ تَفعَلُ[٣]

---

(١) ديوان الشنفرى، ص٧٩.

(٢) المصدر السابق، ص٧٠.

(٣) السابق ، ص٧١.

لمَّا تعجَّب القوم من عظيم صُنع الشنفرى، وفرط سرعته، راحوا يتساءلون متعجبين، مضطربين: كيف هذا؟! فصوَّرهم وهو على هذا الحال، مستنكرًا تفسيرهم للأمر؛ وفي قوله: (ما كها) شبيه مرسل منفي، أداته الكاف، وهو حجاج سخرية؛ حيث ينفى هذا الصنيع عن الإنسان بعد أن نفاه قبلها عن الجن! وغرض هذه الحجة الاستغراق في إثبات القوة.

وَخَرْقٍ كَظَهرِ التُّرسِ قَفــرٍ قَطَعتُــهُ بِعــامِلَتَينِ، ظَهــرُهُ لَــيسَ يُعمَــلُ(١)

اعتمد الشاعر على التشبيه المرسل في تصوير قوته؛ حيث شبَّه الأرض بظهر الترس؛ لأنها ملساء، وراح يصور هذا الموضع من الأرض بأنه لا يسكنه أو يمر به أحد؛ استغراقًا في الاحتجاج على قوته، أمّا قوله: (ظهره ليس يُعمَل) ففيه دلالة على القوة؛ ففي مقابل ضعف غيره، وعدم قدرة أحد على تجاوز هذا الطريق، برزت قوته وسرعته وشجاعته.

ولذلك يكون البيت استدراكًا لما سبقه من أبيات صوَّر فيها الشاعر شدة الحر، وقلة الوسائل التي تعينه على مواجهته؛ فبهذا التشبيه يؤكد عدم استسلامه؛ فيقدم حجته على ذلك بسيره بسرعة في موضع صعب لا يمر به أحد؛ لذلك يُعَد البيت حجة للقوة عن طريق خرق الطبيعة.

أما عن تصوير الشنفرى لقوة تحمُّله؛ فمنه قوله:

وَنَعلٍ كَأَشــلاءِ السُــمانى تَرَكتُهــا عَلى جَنبِ مَورٍ كَالنَحيزَةِ أغبَــرا(٢)

فلم يكن يقصد الشاعر من تصوير بعض مظاهر ضعفه إلا التأكيد والاحتجاج على قوته؛ وكأنه يريد أن يؤكد أنه مع اجتماع الفقر والجوع وشدة الحر وقسوة البرد، استطاع أن يتغلَّب على ذلك.

---

(١) ديوان الشنفرى، ص٧٢.

(٢) المصدر السابق، ص٤٦.

فالبيت فيه تشبيهان مرسلان، أداتهما الكاف؛ حيث شبَّه نعله الممزق بأشلاء طائر السُّماني؛ وذلك بعد أن خلع نعليه في أثناء عدوِه؛ أو بعد أن اضطر لخلعها بعد أن بليت، ثم يشبه الموضع الذي تركها فيه بالأرض التي أصابها الغبار وهي خشنة يصعب المشي عليها.

كل ذلك يريد من خلاله إقناع المتلقي بقوته؛ فيقدم كل ما يستطيع من حجج ليصل بالمتلقي إلى درجة من الإقناع، ويعتمد على التشبيه في تصوير هذه القوة، سواء أكانت قوة في جسده، أم سرعته، أم في أدوات الحرب التي يحملها.

كما يقول مشيرًا إلى نعليه:

فَإمّا تَرَيْنِي كَابِنَةِ الرَمــلِ ضــاحِيًا عَلــى رِقّــةٍ أَحْفَــى وَلا أَتَنَعّــلُ[١]

فهو يحاور امرأة يشكي لها حاله، وفي قوله: (ابنة الرمل) كناية عن (موصوف) وهي الحية، والبيت فيه تشبيه مرسل، أداته (الكاف)؛ حيث يشبه نفسه وهو يسير في الرمال الملتهبة، حافي القدمين في الصحراء، بالحية أو البقرة الوحشية.

ويقول:

فَبتُّ عَلى حَــدِّ الــذِّراعَين مُجــذِيًا كَما يَتَطَــوَّى الأَرقَــمُ المُتَعَطِّــفُ[٢]

يصور الشاعر في هذا البيت حالة الخوف التي عاشها في فترات حياته، حيث يسير خوفًا من قبيلته وممن أغار عليهم؛ فيشبّه نفسه وهو يتوسَّد إحدى يديه النحيلتين؛ من شدة البرد، بصورة ذكر الأفاعي الذي يستدير ويلتف بعضه على بعض. وهذا البيت يدور حول معناه بيت آخر له، وهو قوله:

وَأَعدِلُ مَنحوضًــا كَــأَنَّ فُصوصَــهُ كِعابٌ دَحاها لاعِبٌ فَهْــيَ مُثَّــلُ[١]

---

(١) ديوان الشنفرى، ص٦٨.

(٢) المصدر السابق، ص٥٣.

وفي البيت تشبيه مرسل؛ اعتمد فيه على أداة التشبيه (كأنّ) تأكيدًا لقوة الشبه بين طرفي التشبيه، وهنا يشبه ذراعه وهي خالية من اللحم وهو يتوسَّدها كأنها قطعة حديد؛ لِما أصابها من ضعف فأصبحت خالية من اللحم.

ولعل المتلقي لهذين التشبيهين يصاب بكسر لأفق توقعه؛ حيث تعوَّد المتلقي تصوير الشاعر لقوته من كل جانب؛ ولكنّ البيت يوحي بشدة الوهن الذي أصابه، لكن هذا يمثل نوعًا من تصوير الواقعية؛ فالشاعر لا يريد أن يعطي لنفسه صورة أسطورية؛ بل يريد تصوير نفسه في كل حالاته.

بل إنّ الباحث يذهب إلى أبعد من ذلك؛ فالشاعر في تصوير حالة الوهن هذه لا يصوِّر نفسه مستسلمًا لها، أو يائسًا من الاستمرار في الغزو؛ بل يريد أن يخدم بهذا التصوير الفكرة الأساسية وهي القوة، وكأنه يريد أن يستأنف ويعاود غزوه، وهذا ما تؤكده الأبيات التالية لهذا البيت، والتي راح يصور فيها عدَّته من السلاح، ويستطرد في وصف تفاصيل هذا السلاح، وأنواعه، وألوانه.

ولمثل هذه المعاني " اعتنى الأستاذ المستشرق (**ردهوس Redhouse**) بترتيب لامية العرب، وترجمتها إلى الإنجليزية، وقد طُبعت في المجلة الآسيوية سنة ١٨٨١م، وترجمها إلى الألمانية (**ريس Reuse**) في المجلة الألمانية الشرقية سنة ١٨٥٣م " [٢] .

وما يؤكد هذا المعنى الذي ذهب إليه الباحث قوله في اللامية، معتمدًا على التشبيه:

وَلا خَـــرِقٍ هَيْـــقٍ كَـــأَنَّ فُـــؤادَهُ يَظَلُّ بِهِ المُكّـــاءُ يَعلـــو وَيَســـفِلُ[٣]

فالبين يبدأ بتشبيه منفي، ينفى به عن نفسه التشابه مع الظليم في صفة الخوف.

---

(١) ديوان الشنفرى، ص٦٧.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية: جرجي زيدان، دار الهلال، القاهرة، ١٤١/١ [د.ط.ت].

(٣) ديوان الشنفرى، ص٦١.

وهنا يظهر مدى اعتماد الشاعر على البيئة الحيوانية في تصويره الفني عن طريق التشبيه؛ ففي حال النفي أيضًا يلجأ لصورة الظليم الذي يُضرب به المثل في الخوف؛ فينفي عن نفسه التشابه معه.

وقد صوَّر الشنفرى في لاميته بعض مظاهر الوهن التي ظهرت عليه، " فاللامية تنطق بلسان البادية الأولى وحياة التشرد والعنفوان " [١] ؛ فيقول الشنفرى:

وَأطوي عَلى الخُمْصِ الحَوايا كَما انطَوَت خُيوطَةُ مــارِيٍّ تُغــارُ وَتُفتَــلُ[٢]

فهو يعبِّر عن الوهن الذي أصابه، ولكنّ نفسه أبيَّة صبورة؛ فيصوَّر نفسه في صبره على الجوع، وهو يربط بطنه برباط قوي كما يفعل فاتل الخيوط؛ فيعقدها بكل دقة؛ والبيت بذلك يكون حجة على صبره وتحمله الجوع والألم، كما يبدأ الشاعر البيت بالفعل المضارع (أطوي) الذي يدل على تجدد فعل الجوع عنده، وتأكيدًا لذلك يأتي بالفعل الماضي (انطوت) الذي يدل على تحقق وقوع فعل الجوع.ولذلك يري (يوسف خليف) أنّ اللامية تعد أفضل شعر الشنفرى، ويؤكد هذا الرأي بتصوير الشنفرى لنفسه في صبره على الجوع؛ فيقول: " تعد (اللامية) صورة دقيقة كاملة لحياة الصعاليك في العصر الجاهلي، ... ؛ حيث يرسم الشاعر صورة رائعة لذلك الجوع النبيل الذي يشعر به الصعلوك، لكن نفسه الأبية تأبى عليه أن يهينها من أجله، فلا يجد أمامه سوى الصبر والقناعة " [٣] .

وَأَغدو عَلى القوتِ الزّهيدِ كَما غَدَا أَزَلُّ تَهــاداهُ التَنــائِف أَطحَــلُ[٤]

البيت فيه تشبيه مرسل، يُشبّه الشاعر نفسه بذئب نحيل من فرط الجوع، يبحث عن الطعام، ولهذه الصورة دلالة مهمة؛ فالشاعر منذ البداية قد صرّح بفكرة البديل

---

(١) الجامع في تاريخ الأدب العربي – الأدب القديم: حنا الفاخوري، ص١٧١ .

(٢) ديوان الشنفرى، ص٦٣.

(٣) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: يوسف خليف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨م، ط٣، ص٣١.

(٤) ديوان الشنفرى، ص٦٣.

عن قومه؛ فاختار عالم الحيوان، فانصهر معه وأصبح واحدًا منهم، وأصبح يشبههم ويشبهونه في كل حالاته، وفي قوله: (أغدو) بصيغة المضارع تعبير عن حياة الصعاليك وتجدّد انشغالهم الدائم بجمع الطعام واستمراره. ولمثل هذه المعاني تُعَدُّ اللامية: " قمة عطائه الشعري ... وقد اهتم بها كثير من الأدباء والنقاد والمفكرين، فشرحوها وعلقوا عليها ... وفي العصر الحديث ترجمها الأستاذ (جورج يعقوب) إلى الألمانية، وإلى الإنكليزية ترجمها (ريد هوس)، كما أنها تُرجمت إلى الفرنسية والبولونية والإيطالية وإلى لغات أخرى كثيرة، وحققها المستشرق (ثيودور نولدكه) ودرسها بعمق وعناية " (١) .

الخاتمة:

كان الشنفرى – بوصفه أحد الصعاليك – في صراع دائم، وجدال مستمر، يحاول بشتى الطرق أن ينتصر لنفسه، ويبرِّر لفعله؛ فاعتمد على التشبيه من أجل إقناع المتلقي بقوته؛ فوصف نفسه في علوِّها وترفُّعِها، وقوته في نفسه وسلاحه، ثم راح يضفي على المرأة من المعاني ما يوحي بمثاليتها، وذلك عن طريق التشبيه، ثم انطلاقًا من فكرة البديل عن الأهل التي صرَّح بها في اللامية، يتوقَّف أمام صورتي الذئب والقطا، ويصورهما – معتمدًا على التشبيه – بصورة تخدم أغراضًا حجاجية لديه.

(١) موسوعة الشعراء الصعاليك (الجزء الثاني: من العصر الجاهلي حتى العصر الحديث): حسن جعفر نور الدين، رشاد برس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٦م، ط١، ٢٢/٢ .

قائمة المصادر:

١- أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم، محمد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي، بيروت – لبنان، ١٩٩٩م، ط١.

٢- الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، ١٩٥٨م، ط٥.

٣- بلاغة التشبيه في النقد العربي القديم والحديث: عبد الرحمن حجازي ، بحث منشور بمجلة علامات في النقد، مج١٧، الجزء٦٧، جدة، ٢٠٠٨م.

٤- تاريخ آداب اللغة العربية: جرجي زيدان، دار الهلال، القاهرة، [د.ط.ت].

٥- التداوليات – علم استعمال اللغة: حافظ إسماعيلي علوي، دار الكتاب الحديث، الأردن، ٢٠١٤م، ط٢.

٦- الجامع في تاريخ الأدب العربي – الأدب القديم: حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت – لبنان، ١٩٨٦م، ط١.

٧- الحجاج في الشعر العربي – بنيته وأساليبه: سامية ، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١١م، ط٢.

٨- الحجاج في شعر المتنبي – دراسة في الفاعلية الحجاجية: عباس حسن الطيار، بحث منشور بمجلة العلوم الإنسانية، مج٣٦، العدد٥، جامعة بابل، ٢٠١٨م.

٩- ديوان الشنفرى، تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت،١٩٩٦م، ط٢.

١٠- السبْع المعلّقات – مقاربة سيمائيّة أنتروبولوجيّة لنصوصها: عبد الملك مرتاض، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨ [د.ط].

١١- سر الفصاحة: ابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م، ط١.

١٢- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: يوسف خليف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨م، ط٣.

١٣- الصورة الفنية بين التراث النقدي والبلاغي عند العرب: جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢م، ط٣.
١٤- الكامل في اللغة والأدب: أبو العباس المبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧م، ط٣.
١٥- كتاب الصناعتين: أبو الهلال العسكري، تحقيق: محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ، ١٩٥٢م، ط١.
١٦- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٢، [د.ت].
١٧- محاولات في تحليل الخطاب: صابر الحباشة، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٩م، ط١.
١٨- المزهر في علوم اللغة وأنواعها: جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ورفاقه، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٣.
١٩- موسوعة الشعراء الصعاليك (الجزء الثاني: من العصر الجاهلي حتى العصر الحديث): حسن جعفر نور الدين، رشاد برس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٦م، ط١.